

خوارقية الكرامة الصوفية بين الإقرار والنفي

The supernatural mystic dignity, between confession and banishment

فرقنيس رياض / طالب دكتوراه

مخبر التأويل وتحليل الخطاب

جامعة عبد الرحمن ميرة، بجاية

ملخص: تعدُّ قصص وحكايات بركة الأولياء الصالحين حقلاً خصباً للظواهر الفوتبيعية، ومسرحاً للأفعال الخارقة. إذ تحفل الأدبيات الصوفية بمرويات تحكي كرامات حصلت لرجال التصوف. وصورتهم بقدرات خرافية، ونسبت لهم أفعالا يعجز البشر العاديين الإتيان بمثلها. وانطلاقاً من هذا، ستسعى هذه الورقة البحثية استكشاف مظاهر الخارق في أفعالهم، وتتبع جوانب الإعجاز في خرق سنن الطبيعة ونواميس الكون، التي تحفل بها قصصهم. كما سنحاول رصد الآراء المتباينة حول قضية أحقية جريانها على أيدي أولياء الله. وهذا بإبراز رأي وجَّح المثبتين لها. وتقديم الرأي المخالف مع حججه وبراهينه.

الكلمات المفتاحية: الولي، الكرامة، الخارق للعادة، الإثبات، النفي.

Abstract : The mystic dignity of the sufimen is a fertile field for unnatural phenomena and a theater of supernatural acts. Sufi literature is filled with narratives that tell the dignities of the Sufis. This research will seek to explore the manifestations of the supernatural in their actions, and track aspects of miracles in violating the laws of nature and the laws of the universe.

We will also address the issue of the controversy over its eligibility, by highlighting the positions and arguments of the proponents in opposition to those who deny the occurrence of such phenomena.

Keywords : Dignity, The extraordinary, Unnatural, Proof, Deny.

مقدمة

تشغل الكرامة حيزاً مهماً في الخيال الشعبي، ومكانة شعورية واعتقادية في بنية الدين الشعبي للحضارة الإسلامية. أثارت حولها جدلاً واسعاً يتعلق خصوصاً بأحقية جريانها والتصديق بها من جهة، أو فيما يرتبط بأصحابها "الأولياء". والمكانة الفضلى التي يحظون بها في أعين مريديهم وأتباعهم، أو عند عامة الناس التي تُتبرك وتقدس وتستجد بالآولياء وتعتبرهم أبطالاً أسطوريين، قادرين على قضاء الحاجات وحل المشكلات المستعصية. وإنَّ الجُوء للآولياء له دواعي كثيرة تعبر عن الوجدان الجمعي، الذي يؤمن أنَّ الولي الصالح هو المُخلص وبفضل بركاته يمكن ردُّ الشرور وجلب الخيرات وقضاء الحاجات وتحقيق القرب من الله وكسب مرضاته عبر التبرك بعباده الزهاد الصالحين، أصحاب الورع والتقوى. وتبدى صوره في زيارة القبور والأضرحة، وهو ما يعود إلى أنَّ هؤلاء يتمتعون بقدرات وقوة خاصة ويتميزون عن الناس بقدرتهم الإعجازية التي خصها الله بهم، وهو ما يُطلق عليه بالكرامات التي لا ترتبط بحياة الولي وحسب، بل تنتقل أيضاً بعد مماته⁽¹⁾.

إنَّ الاعتقاد بظهور الكرامات على أيدي الآولياء أمرٌ شائع في التراث الإسلامي، وما زاد في عمق وترسيخ هذا الاعتقاد في الأوساط الشعبية، هو نشأة الطرق الصوفية بداية من القرن السادس الهجري، الذي تزامن مع انخراط ظروف المعيشة في جوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. الأمر الذي ساهم في تغذية وذيوع كثير من الكرامات حول شيوخ الطرق الصوفية التي حاولت تصوير الولي بالقادر على صنع المعجزات ووصف قدراته الخارقة التي تفوق قدرات البشر وتصوراتهم متجاوزاً بذلك وضعية الإنسان العادي.

1- الولي

يُطلق الصوفية اسم "الولي"، على الرجل الذي اصطفاه واختاره الله سبحانه وتعالى. تكريماً له، فالله بقدرته يتولى من عباده من يشاء، فتظهر عليه صفاته وأسمائه. ومن شروط تحقق الولاية، الصلاح، الذي هو من شروط الترقى فيها لبلوغ أعلى المراتب وقد أورد القشيري في رسالته معنيين للولي، الأول: "فعيل بمعنى مفعول، وهو من يتولى الحق سبحانه أمره، فلا يكله إلى نفسه لحظة، بل يتولى الحق، سبحانه، رعايته"⁽²⁾. أما الثاني: "فعيل مبالغة من الفاعل، وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته، فعبادته تجري على التوالي، من غير أن يتخللها عصيان"⁽³⁾. ويضيف، "أنَّ كلا الوصفين جائزان، وحتى يصبح الولي ولياً، يجب قيامه بحقوق الله تعالى على الاستقصاء والاستيفاء، ودوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء"⁽⁴⁾.

2- الكرامةُ في القرآن والسنة النبوية

تنتمي قصة الكرامة إلى قطاع واسع من الإنتاج الثقافي العربي الإسلامي، وهذا أكسبها وجوداً في أذهان العامة من المؤمنين، وجاء التصديق بها لثبوتها بنصوص القرآن والأحاديث النبوية الشريفة وهذا ما سنستدل عليه في هذا المبحث.

أ- الكرامةُ في القرآن الكريم

1- **كرامة أصحاب الكهف:** يقول عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ سِنِينَ عِدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لَمَّا لبثُوا أَمَدًا﴾ 10-11-12 الأعراف. إنَّ الفتية الذين جاء ذكرهم في القرآن، فتية صالحون، عاشوا مع قوم كافرين. ومن شدة الاضطهاد والملاحقة فروا بجلودهم، فاهتدوا إلى الكهف ليأتمنوا فيه على أنفسهم من بطش أهل القرية الكافرين. فأنامهم الله لأكثر من 300 سنة، ثم بعثهم مرة أخرى، لتبقى قصتهم الخالدة دليلاً على قدرة الله تعالى، وما كان الفتية رسلاً ولا أنبياء إنما أناس صالحون مؤمنون، فجاءتهم كرامة من عند ربهم من غير احتساب.

2- **قصة مريم:** يقول عز وجل: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ 37 آل عمران.

السيدة مريم العذراء، أغدقها الله من الكرامات ما لا يعدُّ ولا يُحصى؛ فولدت من غير أن يمسسها بشر، وكانت تأتيها الأرزاق إلى محرابها عن طريق خرق العوائد. وما هي بنبية ولا مرسولة من عند الله، إنما امرأة صالحة مؤمنة، قاتية وعابدة لله تعالى.

إنَّ النصَّ القرآني حافل بنماذج الكرامات التي خصها الله لعباده الصالحين المؤمنين. والكرامة كما وردت في النصَّ القرآني، هبة ربانية فضل بها عباده الصالحين من دون اعتبارها حجةً وبيانا لهم، بقدر ما هي دلالة على عظمة الخالق وقدرته جلَّ جلاله.

ب - الكرامةُ في السنة النبوية

كذلك تحفل السنة النبوية الشريفة بمروياتها وأحاديثها، على جملة من الكرامات التي وقعت مع مؤمنين ورجال صلحاء من صحابة وتابعين. فعن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه قال: "يا

سارية الجبل، في حال خطبته يوم الجمعة، وتبلغ صوت عُمر إلى سارية في ذلك الوقت حتى تحرز من مكامن العدو من الجبل في تلك الساعة" (5).

إنّ هذه المروية، تُسند لعمر قوة العلم والمكاشفة التي خصّه الله بها. ورغم بعد المسافة بين عُمر وسارية - المدينة ونهاوند - إلا أنّ عُمر قدّم تحذيراً لقائد جيش المسلمين (سارية) بالخطر المُهدق بهم، بعد أن شاهد الخطر على بُعد أميال، فلا يُمكن أن تكون هذه الخارقة سوى كرامة من كرامات الله لعباده الصالحين.

ومن المرويات التي أوردتها القشيري في رسالته، عن النبي ﷺ قال: "بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها، التفتت البقرة وقالت: إنّي لم أخلق لهذا؛ إنّما خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله. فقال النبي ﷺ آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر" (6).

3 - الكرامة والمصطلحات المجاورة لها

تعدّ الكرامة ظاهرة لها امتداداتها ووجودها في تاريخ الفكر العربي الإسلامي. وقد يعتقد البعض أنّها ظاهرة صوفية بامتياز، غير أنّ الواقع هو خلاف ذلك. لأنّ الكرامة ظاهرة رافقت المُتخيل البشري منذ فجره الأول، "لقد قدمت البديل الخيالي - الضروري للمحافظة على تقدير الذات لذاتها وللاستقرار مع حقها - عن الظروف المجتمعية القاسية، والأوضاع السياسية التي قعّت وقهرت الشخصية العربية العادية أو السوية، وظهرت الكرامة نتاجاً يُجسد آمالاً فردية، ورغبات خاصة في تحقيق الذات وإقامة التوازن - بطريقة لا واعية- بين الأنا والعقل، وتوفير الشّعور بالأمن. لكنها، من جانب آخر، تحقيق إسقاطي لأمني الجماعة" (7).

الكرامة إذن ظاهرة متجذرة في الفكر الإنساني الثقافي / الديني، وتُحاكي أنماطاً سابقة عليها في الوجود. تلتقي في الماهية والجوهر مع نماذج أخرى، وتشارك معها.

إنّ وشائج كثيرة تجمع الكرامة ببعض المصطلحات، كالمعجزة والأسطورة والقصص والحكايات العجيبة. وهذه الأنماط كلّها تلتقي في كونها تروي أحداثاً وأفعالاً خارقةً مستعصيةً، يُمكن إدراجها في خانة اللاممكن والمستحيل، لغرابة أحداثها ومخالفتها سنن الطبيعة والمعقول.

أ - الكرامة والمعجزة

تَشْرَكَانِ فِي كَوْنِهِمَا خَرَقًا لِلْعَوَائِدِ، وَتَجَاوَزًا لِلْمَأْلُوفِ. وَهَذَا بِالْقَفْزِ عَلَى قَوَانِينِ الطَّبِيعَةِ وَالزَّمَنِ وَالْمَكَانِ. فَكِلَاهُمَا نَمَطٌ مَعْرِفِي لَا يَتَقَيَّدُ بِالْقِيُودِ وَلَا يَعْتَرِفُ بِالْمُسْتَحِيلِ؛ إِذْ يَتَجَاوَزُ الْبَشَرِيَّ وَالطَّبِيعِيَّ وَيُحَقِّقُ كَيَنُوتَهُ. وَالْآيَاتُ وَالْمَعْجَزَاتُ وَالْكَرَامَاتُ وَاحِدَةٌ، وَإِنَّمَا سَمِّيتْ مَعْجَزَاتٌ لِإِعْجَازِ الْخَلْقِ عَنِ الْإِيتَانِ بِمِثْلِهَا⁽⁸⁾، وَهِيَ مِنْ نَفْسِ جَنْسِ الْعَمَلِ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْكَرَامَاتِيَّ، كَمِثْلِهِ الْإِعْجَازِيَّ، يَلْتَقِيَانِ فِي كَوْنِهِمَا أَفْعَالًا خَارِقَةً تَفُوقُ تَصَوُّرَاتِ الْبَشَرِ وَقُدْرَاتِهِمْ، وَصِفَةُ الْخَرَقِ صِفَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ النَّمُودَجِينَ. وَالْمُتَأَمِّلُ لِلتَّعْرِيفَاتِ الَّتِي قَدَّمَهَا الصُّوفِيَّةُ الْأَوَائِلُ لِلْكَرَامَةِ، يَجِدُهَا تَسَاوَى مَعَ الْمَعْجَزَةِ، فَالطَّيْرَانُ فِي الْهَوَاءِ، وَتَكْلِيمُ الْحَيَوَانِ، وَتَسْخِيرُ الطَّبِيعَةِ، وَالْإِيتَانُ بِالطَّعَامِ وَالتَّكْثِيرُ مِنْهُ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْخَلْقِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْفُوطِيعِيَّةِ، سَمَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالْمَعْجَزَةِ.

غَيْرَ أَنَّ جَوْهَرَ الْإِخْتِلَافِ بَيْنَهُمَا، نَحْصُهُ الصُّوفِيَّةُ فِي نِسْبَةِ الْفِعْلِ لِمَنْ؟ وَفِي هَذَا يَقُولُ السَّرَاجُ فِي اللُّهَعِ، "الْآيَاتُ لِلَّهِ، وَالْمَعْجَزَاتُ لِلْأَنْبِيَاءِ، وَالْكَرَامَاتُ لِلْأَوْلِيَاءِ وَخِيَارِ الْمُسْلِمِينَ"⁽⁹⁾. إِنَّ الدَّافِعَ وَرَاءَ هَذَا التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْكَرَامَةِ / الْمَعْجَزَةِ، مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، هُوَ انْتِبَاهُ الصُّوفِيَّةِ لِمَشْكَلَةِ الْإِلْتِبَاسِ وَالْخَلْطِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَحْدُثَ بَيْنَ الْمَعْجَزَةِ / الْكَرَامَةِ مِنْ جِهَةٍ، وَبَيْنَ النُّبُوَّةِ / الْوَلَايَةِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى. وَبِخُصُوصِ هَذَا يَقُولُ الرَّازِي: "وَكْرَامَةُ الْأَوْلِيَاءِ مَعْجَزَةٌ لِنَبِيِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ تَبِعَ لَهُ، وَصَدَقَ التَّابِعُ يَدُلُّ عَلَى صَدَقِ الْمَتَّبِعِ. وَرَتَبَةُ الْوَلِيِّ أَدْنَى مِنْ رَتَبَةِ النَّبِيِّ"⁽¹⁰⁾.

وَاحْتِرَازًا مِنْ وَقُوعِ الْوَهْنِ بَيْنَ مَعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، يُبَيِّنُ كِبَارُ الصُّوفِيَّةِ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا، إِذْ "أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يَحْتَجُونَ بِمَعْجَزَاتِهِمْ عَلَى الْمَشْرِكِينَ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةٌ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْأَوْلِيَاءُ يَحْتَجُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِمْ حَتَّى تَطْمَئِنُّ وَتُوقِنَ وَلَا تَضْطَرِبَ"⁽¹¹⁾. وَاللَّهُ يُظْهِرُ الْكَرَامَاتَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ تَهْذِيًا لِنَفْسِهِمْ وَتَأْذِيًا لَهَا، بَيْنَمَا تُعْطَى الْمَعْجَزَةُ لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَابِ الْإِحْتِجَاجِ بِهَا وَإِثْبَاتِ نُبُوَّتِهِمْ وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى صَحَّتِهَا.

وَمَهْمَا كَثُرَتِ الْفُرُوقَاتُ وَالْإِخْتِلَافَاتُ بَيْنَ الْمَعْجَزَةِ وَالْكَرَامَةِ، وَالَّتِي وَقَفَتْ مُصَنَّفَاتُ الصُّوفِيَّةِ أَمَامَهَا مَوْقِفَ الْجَدِّ، وَفَصَّلَتْ فِيهَا بِالشَّرُوحَاتِ وَالتَّعْلِيلَاتِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَفَاهِيمَ (الْمَعْجَزَةُ وَالْكَرَامَةُ) تَشْتَرِكُ فِي كَوْنِهَا خَارِقَةً لِلْعَادَةِ، وَتُظْهِرُ عَلَى يَدِ رُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَتُعْذَرُ مَعَارِضُهَا مِنَ الْإِنْسَانِ الْعَادِي، وَتَكُونُ مُوَافِقَةً لِلْسَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ وَمُصَدِّقَةً لَهَا⁽¹²⁾.

ب - الكرامةُ والأسطورة

إنّ البحث في الحكاية الكراماتية كظاهرة شديدة التعقيد والغرابة، لاحتوائها على أحداث غير طبيعية وأفعال خارقة تفوق طاقات البشر العاديين، يقودنا للانسياق لفرضية أنّ الكرامة تحاكي نماذج أخرى كالنمط الأسطوري، وتقلده في جوانب كثيرة. والكرامة كقصة تنتمي إلى المتخيل العربي الذي أنتجته الثقافة العربية الإسلامية، لا يمكن أن تنسلخ عن سياقها الديني. وبما أن الكرامة شكل من أشكال الحكمة عن قصص / حكايات بركة أولياء الله الصالحين "فهي تعبر عن القدسي أو ترتبط به من جانب ما وبدرجة ما"⁽¹³⁾. والحكاية الكراماتية تقص تلك الأفعال الخارقة، وتروي أحداثاً تعدّ من المقدس، مثلها مثل باقي أشكال المعرفة في الثقافة العربية الإسلامية، التي ترتبط أشدّ الارتباط بالقدسي. لأنّ كرامات المتصوفة "يتجلى فيها القدسي في أرفع صورته: الفوطيعة أو الخارقة؟ أليست معبرة عن أعلى فعل قدسي: كيف يحلّ المفارق للطبيعي في الطبيعي وكيف يستمر في إعجازه ذلك عبر أشخاص نسميهم الأولياء"⁽¹⁴⁾.

ولعلّ الأسطورة من أقرب المصطلحات تماثلاً مع الكرامة، وارتباطها بها من حيث الحكمة عن القدسي، إذ تحاكيها في رواية تاريخ مقدس لدى طبقات وشرائح في مجتمع ما. وبحسب مرسيا إلياد، فالأسطورة "هي دائماً سرد لحكاية «خلق»: تحكي لنا كيف كان إنتاج شيء، كيف بدأ وجوده، لا تتحدث الأسطورة إلا عما قد حدث فعلاً، عما قد ظهر في كل امتلائه، أما أشخاص الأساطير فـ«كائنات عليا»، نعرفهم بما قد صنعوه في الأزمنة القوية، ذات التأثير الفعال، وهي أزمنة «البدائيات». فالأساطير تكشف، إذن، عن الفعالية المبدعة لهذه الكائنات العليا، وتميط اللثام عن قدسية أعمالهم (أو عن مجرد كونها أعمالاً «خارقة»). باختصار، تصف الأساطير مختلف أوجه تفجر القدسي (أو «الخارق») في العالم"⁽¹⁵⁾.

وكما تروي الأسطورة حدثاً مقدساً وتروي عن أشخاص مقدسين في التراث الشعبي، مثلها تماماً تروي الكرامة قصة مقدسة لها أبعادها الدينية، ما يضفي عليها طابع القدسية، كما أنّ هذه القدسية تلحق حتى بأبطال هذه الكرامات، كفاعلين ومحركين لأحداثها بأفعالهم الخارقة، و"حكايات الكرامات إنّما تتحدث عن ظهور هذه القوة الخارقة المقدسة عند أولئك الأشخاص أو تلك الأشياء، عن كيفية تمتع مالكيها بها وكيفية تمتع "المؤمنين" بها، أي عن انبثاق شيء مفارق للطبيعة في الطبيعة وفعله بواسطتها"⁽¹⁶⁾.

وعلى هذا الأساس، يُعدُّ اعتبار الكرامة محاكاة لعالم الأسطورة أمراً قريباً للنطق، وهذا استناداً لعدة اعتبارات فكلاهما يشتركان في الوظيفة؛ الكرامة والأسطورة تحكيان عن حقيقة مطلقة، عن ذلك التاريخ المقدس، والغاية واحدة هو نشر القدسي وإشاعته بين الناس. كما أنَّ شُخص الأساطير من الآلهة والأبطال، "فإنَّ الأولياء بدورهم، وبسبب مشاركتهم في القدسي، ليسوا بشرًا عاديين" (17)، ولأنَّهم يمتلكون صفة القدرة على خلق الأفعال الخارقة، جاز اعتبارهم بين المنزلتين "فهم ليسوا آلهة، ولكنهم ليسوا في مستوى باقي البشر، برغم صفة البشرية التي تظلُّ لاحقة بهم من جهة طبيعتهم الإنسانية" (18).

وبحسب الدكتور علي زيغور، الكرامة الصوفية مستمدة من طفولة العقل البشري (19)، ويرجعها في معظمها إلى الأسطورة. كما أنَّ الغاية منهما واحدة، أي كان "كلاهما يرنو لشرح العالم وتفسير ظواهره، وكلاهما تعبير عن حاجة رئيسية في الفكر البشري، وعن رغبة في تفادي الإقرار بالعجز، وفي محاولة مباشرة أو لا واعية لتحسين موقف الإنسان وحمايته" (20).

ج - الكرامة والحكاية العجائبيّة

تبدو طبيعة الكرامة الصوفية على تماس مباشر مع مفهوم العجائبي. فما ترويه الكرامات من أحداث تُخالف مجرى المألوف وتتجاوز قوانين الطبيعة، يختلطُ فيها الواقعي مع اللاواقعي، الممكن باللاممكن. لأنَّ طبيعة الأحداث التي ترويه الكرامات لا تنسجم مع الوعي العام، كونها أفعالاً وأحداثاً فوطبيعية، يعجزُ العقل البشري على تفسيرها، كونها تفوق طاقاته العقلية والعضوية. وهذا ما يضعُ نصوص الكرامات في خانة الأدب العجائبي. ومعلوم أنَّ الحكاية العجائبيّة، تروي أحداثاً تضعُ المتلقي موضع الافتتان والدهشة والحيرة. وما التصاق مصطلح العجيب بهذه الحكايات سوى "للدلالة على صنف من الإبداع قائم على خرق المألوف وإدهاش المتلقي وتحيرته" (21).

إنَّ البحث عن مفهوم العجائبي يُلخصه تودوروف في ذلك "السّر الخفي"، المستعصي عن التفسير أو كما يقول، هو ذلك اللامقبول (22)، بما يحمله من عناصر الدهشة والغربة التي تضعُ القارئ أمام أحداث ووقائع تناقض مخزونه المعرفي والإدراكي. إذ أنَّ "في النصوص العجائبيّة، يروي المؤلف أحداثاً غير قابلة للوقوع في الحياة، إذ ما تعلق المرء بالمعارف المشتركة لكل حقبة، والتي تمس ما يمكن وما لا يمكن أن يحدث" (23). ولأنَّ تحقق العجائبيّة في نصٍّ من النصوص، له شروط محددة، تطرق لها تودوروف في كتابه (مدخل إلى الأدب العجائبي)، "ومن أول عناصر العجائبي ضرورة التعامل مع عالم الشخصيات داخل النص باعتباره عالم أحياء حقيقيًا. ولعلَّ التجسد الأمثل لهذا الشرط يكاد

يتجلى في نصوص المعراج وما شاكلها من كرامات الصوفية والأولياء⁽²⁴⁾، التي تقدّم شخصيات بثوب البطولة، وهي شخصيات واقعية وتاريخية لها وجودها في التاريخ الإسلامي، وهذا ما يمنح لهذه الشخصيات وجوداً فعلياً في النصوص والواقع الحي الذي حفظه التاريخ المدوّن.

وعلى هذا الأساس تلتقي الكرامة الصوفية مع الحكاية العجائية في الشكل والمضمون. كما تزخر بعناصرها، كمظاهر التجاوز الغريب، والخروج عن المألوف. وكلّها عناصر استثمرتها الكرامة الصوفية ووظفتها على نطاق واسع. وهذا ما ذهب إليه الدكتور علي زينغور، إذ يرى أنّ الكرامة شديدة الالتصاق بالأدب الشعبي، والحكاية العجائية لون من ألوان النثر في الأدب الشعبي. إذ إنّ الكرامة "تأخذ منه صفات أبطالها، ويقومان على بُنى ووظائف متشابهة"⁽²⁵⁾. ويضيف عن أهم نقاط الالتقاء بينهما كون "الدّين مصدراً رئيسياً لهما. ثم إنّهما متأصلان في الوعي الشعبي، ويؤمنان بالعجائية، وخرق السنن، وتجسيد الأماني. هما يتداخلان، ونفهم الواحد بمساعدة من الآخر"⁽²⁶⁾.

4 - مفهوم الكرامة

للكرامة عديد المفاهيم والتعريفات، غير أنّها تلتقي جميعها في أنّ الكرامة هي حدوث فعل خارق، يتجاوز سنن الطبيعة، فكلّ الأفعال الخارجة عن عادة القوم وتتجاوز طاقاتهم الفكرية والعضوية هي من قبيل الكرامة، التي يختص بها صفوة من الرجال دون غيرهم، وهم الأولياء الذين ثبت صلاحهم واستقام دينهم. ووفق هذا، الكرامة هي مخالفة مقتضى العادة وخرق سنن الطبيعة المألوفة لدى البشر.

- الكرامة عند الصوفية

يُعرفها الكلاباذي (ت 380هـ): "وكرامة الوليّ إجابة دعوة وتمام حال وقوة على فعل وكفاية مؤونة يقوم لهم الحق بها وهي مما يخرج عن العادات ومعجزات الأنبياء إخراج الشيء من العدم إلى الوجود وتقليب الأعيان"⁽²⁷⁾.

وعن ماهية الكرامة يقول القشيري (ت 465هـ): "ثمّ هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في زمان عطش، أو تسهيل مسافة في مدة قريبة، أو تخليصاً من عدوّ، أو سماع خطاب من هاتف، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة"⁽²⁸⁾.

وورد تعريف الكرامة، في لطائف المنن، لابن عطاء الله السكندري (709هـ): "الكرامات قد تكون طياً للأرض ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، واطلاعاً على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيراً لطعام أو شراب، أو إتياناً بثمره في غير إبانها أو اتباع ماء من غير حفرة،

أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو ثمارا لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مثمرة، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسيّة" (29).

وجاء في كتاب طبقات الشافعية الكبرى: "وإنما بالغ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما يخط عن خرق العادة" (30).

ومع اتفاق الصوفية في تقديم مفهوم جامع للكرامة، نجدهم كذلك يتفقون في قضية من تجوز عليه هذه الكرامات. إذ جاء في مصنفات الصوفية وعلى كثرتها، أنّ الكرامة لا تحدث سوى لمن عُرف بالصدق في إيمانه وظهر عنه الصلاح والتقوى والورع والاستقامة. فهذا السراج في كتاب اللع يحكي عن سهل بن عبد الله أنّه كان يقول: "من زهد في الدنيا أربعين يوما صادقا مخلصا في ذلك تظهر له الكرامات من الله عز وجل، ومن لم يظهر له ذلك فلما عدم في زهده من الصدق والإخلاص" (31).

إنّ ظهور الكرامات على الأولياء إنّما مقترن بصدقهم وصلاتهم، ودرجة زهدهم في الحياة. وهذا ما ذهب إليه القشيري، تأييدا لما جاء في اللع، يقول: "وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه في أحواله، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز" (32).

5 - الخارق في الكرامة الصوفية

ارتبطت قصص كرامات الأولياء بالخيالة الشعبية، وأخذت طابع الشفوية في انتقالها بين الناس. وهذا تحديدا ما أكسبها وجودا وحضورا بين شرائح واسعة من المجتمع، والتي تقبلت الكرامة كقصة بسيطة من حيث المضمون والبناء والأسلوب اللغوي البسيط، ما أسهم في تحييب سماعها وساعد على شيوعها بين القصاص والرواة.

جسدت كرامات الأولياء "مغامرات أبطال خارقين امتزج فيها الخيالي بالواقعي بما يحرك عواطف المتقبلين وشجونهم، الهدف هو إثارة عجب القارئ أو دهشته ذاك الذي يتوق إلى تفاصيل خرافية مدهشة بأسلوب قصصي منمق حافل بالمبالغات" (33).

إنّ الكرامة حقل للظواهر فوق الحسية والأفعال الفوتوبيعية، المعجزة على قدرات وأفهام البشر، لاحتوائها على أحداث وأفعال لا يمكن إدراجها سوى في مجال اللاممكن والمستعصي والغريب. وهذا ما يثير فضولنا ويدفعنا نحو استنطاق بعض النماذج الكراماتية، ومحاولة استكشاف الخوارقية التي تطبع أحداثها وأفعال أبطالها وهذا بتتبع مظاهر وأنواع الخارق في الكرامات الصوفية.

أ - المشي على الماء

من الظواهر الخارقة التي حرصت مرويات المتصوفة على إثباتها للأولياء. إن القدرة على المشي على الماء مخالفة للطبيعة، وفعل كهذا لن يكون سوى قوة خارقة وامتياز لا يحظى به سوى الأولياء، كما ترويه الكرامات ومنها: "قال إبراهيم الخواص: نزلت إلى دجلة وكان الماء مدًا والريح تلعب بالموج، فرأيت رجلا بين الموج يمشي على الماء، فسجدت وجعلت بيني وبين الله أن لا أرفع رأسي حتى أعلم من الرجل؟ فلم أطل السجود حتى حركني وقال: قم ولا تعاود أنا إبراهيم الخراساني"⁽³⁴⁾.

إن المشي على الماء من دون الحاجة لمركب حدث خارق، وقطع للعوائد، مما ألهه البشر. وهو كفعل خارق يتضمن عناصر الفتنة والإدهاش، وهذا ما يحدث "الانفصال بين الولي وغيره من الناس من حيث المنزلة التي لا يصل إليها أحد سواه، فيلقي النص الرعب والدهشة في أذهان المتلقي الذي يحرص على متابعة الحدث"⁽³⁵⁾، وهي حكاية، محاكاة لمعجزات الأنبياء التي حرص المتصوفة على محاكاتها والتأليف على شاكلتها.

ب - التنبؤ بالمستقبل

تعرضت أدبيات التصوف لهذا النوع من الكرامات، التي تنسب للأولياء القدرة على التنبؤ بالأحداث المستقبلية، وتوقع أحداث قبل وقوعها بساعات أو أيام أو حتى أشهر. "وقد اصطلح منظور التصوف على موضوع الإدراك المسبق بـ(الكشف)، وهو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا حسياً وشهودا ماديا متعين الأبعاد"⁽³⁶⁾.

إن التنبؤ بالمستقبل ومعرفة الأحداث التي تقع وراء الزمن، من المظاهر الخارقة التي تمثلت في كرامات المتصوفة التي ذكرت عن أولياء، لهم خاصية الكشف وقدرات تنبؤية تسمح لهم بكشف ما سيقع بالمكان والزمان وبدقة متناهية. ومن أمثلة هذا، كرامة عبد الله بن سعيد بن عبد الكافي المصري، "من كراماته: ما ذكره ابن حجر وغيره أنه أخبر بوقعة إسكندرية المهولة قبل وقوعها"⁽³⁷⁾. ومن المرويات، عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان المعترض اليميني، "قال بعض الثقات: كنت عنده يوما وإذا بامرأة تصرخ قد حضرته الولادة، فقال لي الشيخ: تقرأ لها سورة يس لعل الله يفرج عنها، قال ذلك فلما فرغنا منها قال الشيخ: قد ولدت غلاما وسموه عليا، فسألت عن ذلك فكان كما قال"⁽³⁸⁾. وتكاتب جامع الكرامات للنهباني، يورد جملة من الكرامات في هذا الباب. التي تروي عن أولياء لهم قدرات خرافية في التنبؤ بالمستقبل، كتحديد زمان ومكان الكوارث قبل وقوعها، وأخرى

تحدث عن تفاصيل هلاك أشخاص وظروف ومكان مصرعهم بدقة، وثبت وقوعها فعلاً بعد النبوة مباشرة.

ج - الطيران في الهواء

تنسب الكرامات للأولياء أفعالاً خارقة كالقدرة على الطيران في الهواء والتّقل بين المسافات البعيدة وبين البلدان. يقول التّبّهاني في جامع الكرامات، عن محمد السّروي: "وكان يطير في الهواء ويحمل زير الماء، ويمشي على الماء جهاراً حتى يغيب عن العيون، ثم يعود ويدها مخضبتان بالدم ويقول: توجّهنا لشخص أسر في البحر الملح نخلصناه بعد أن قتلنا جمعا من الكفار"⁽³⁹⁾.

إنّ فعل الطّيران في الهواء والتّقل عبره بين الأجواء. لمن الأحداث الخارقة المنسوبة للأولياء، إذ تصفهم المرويات بقدرات خارقة. يظهر من خلالها الوليُّ بالقادر على تحطّي سنن الطّبيعة، بامتلاكه خصائص لا يشترك أحد فيها معه من عباد الله.

د - تحمل الجوع والعطش

تروي قصص كرامات الأولياء، عن قدرات خارقة لبعض الأولياء، في تحمل الجوع والعطش وعدم النّوم ليل عديدة أو فترات زمنية طويلة. إنّ فطرة الإنسان هي أن يجوع ويعطش وينام "والتحمل هنا خرق لعادة البشر الذين يأكلون ويشربون"⁽⁴⁰⁾. إنّ الكرامة تجعل من الولي بطلاً بـمميزات وقدرات غير عادية، كقدرة التحمل والصبر اللامحدود. وهي صفات لا تعرف في غيره من البشر العاديين. ومن نماذج هذا النوع من الخوارق، كرامة أبي عبيد البصري: "وكان إذا كان أول شهر رمضان يدخل الشّيخ أبو عبيد المذكور بيتاً ويقول لامرأته: طيني علي الباب وألقي إليّ كل ليلة من الكوة رغيفاً، فإذا كان يوم العيد فتح الباب ودخلت امرأته البيت فإذا بثلاثين رغيفاً في زاوية البيت، فلا أكل ولا شرب ولا نام ولا فائته ركعة من الصّلاة"⁽⁴¹⁾. وهذا النوع من الحكايا تصوّر الولي بطلاً يقهر الرّغبة البدنية، كتحمل الجوع وعدم النّوم وتُظهره مرموق المنزلة قادراً "على خرق السنن الطّبيعية، أو على أن يحيا ضمنها وفق إرادته الخاصة، أو نظرتة أو تصوراتة"⁽⁴²⁾، ويظهر لنا هذا النوع من الكرامات رعاية الله للولي، وحفظه من الهلاك والموت المحتوم، وهذا ما يجعل من الولي متفرداً بصفات وقدرات لا نجدها في غيره من البشر العاديين.

هـ - إحياء الموتى

وصل الأمر بالصّوفي حدّ التّماهي ومحاكاة معجزات السيّد المسيح، وأحياناً أخرى وصل به الأمر إلى استنساخ الفعل الإلهي كما في كرامة أحمد بن إدريس: "ومن كراماته رضي الله عنه: أنّه غاب عن

بلده مرة ليدكر إخوانه في الله ومعه جملة من أصحابه، فأت ولدّه فأخبروه بذلك، فأرسل إليهم أن لا تدفوه حتى أحضر، فحضر بعد ثلاثة أيام فقال له: من قال لك أن تموت؟ قم بإذن الله تعالى فقام حياً" (43).

إنّ التّوق الصّوفي بلغ حدّ محاكاة الفعل الإلهي، بأن نسب لنفسه القدرة على إعطاء الحياة. وفي هذه المروية يظهر الوليّ بصفات الخالق، فإن يعيد الحياة لميت منذ ثلاثة أيام وأن يخاطبه، من قال لك أن تموت؟ لا يمكن سوى أن يكون فعلاً معجزاً وخارقاً، يحاكي معجزات الأنبياء عليهم السّلام. وتحديد السّيد المسيح الذي أيده الله بمعجزة إحياء الموتى.

ومهما يكن، فالخارق في الكرامة الصّوفية تعبير عن المشاهد الاستعراضية للقوّة والقدرات غير الطّبيعيّة للأولياء. لإضفاء نوع من القداسة على شخصهم، وكسبا لمريدين وأتباع جدد. إنّ خوارقية أحداث الكرامات الصّوفية بلغت ذروتها، وشكلت تحطياً للزمان والأكوان والإنسان وقدراته، وعليه أصبحت "فعاليات الوليّ إرادة كليّة مهيمنة تمتلك قدرة الخلق والإيجاد وإنزال الموت والعدم، أي إنها قادرة على التّقيضين الحياة والموت، وإنفاذ مشيئتها سلماً وإيجاباً في الموجودات الكونية، صعوداً في سلم مفتوح على المطلق لا تنتهي درجاته الخارقة، بعد أن منح الصّوفي نفسه دوراً إلهياً، أو محاكاة له على الأقل، من حيث الإحاطة الكلية بالوجود وسيطرته على حركات الكائنات" (44).

تعددت مظاهر الخارق في كرامات الصّوفية المروية منهم أو عنهم، منها استحضار الأشياء، كالطعام والشّراب، وإنزال المطر، وتحويل المواد، وطيّ الأرض وتسخير الملائكة والجن والقدرة على الاختفاء في لمح البصر، وغيرها من الأحداث والأفعال الخارقة التي تفوق قدرات وتصورات البشر. ومهما يكن تعدّد الكرامة متنفس الصّوفي، أو هي طريقة منه لمعالجة الواقع ورسم المستقبل الأمثل، وهي تعبير عن مبادئ من جهة، وعن ميول لا واعية لدى الصّوفي من جهة أخرى (45).

6 - الكرامة بين الإقرار والنفي

أ - حُجج الإقرار بجريان الكرامات على أولياء الله

إنّ مسألة جواز جريان الكرامات على أيدي الأولياء والصّالحاء من عباد الله، مسألة مفصول أمرها عند الصّوفية، القدماء منهم ومن جاء بعدهم في العصور اللاحقة؛ يقول الكلاباذي: "أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء وكلام البهائم وطيّ الأرض وظهور الشّيء في غير موضعه ووقته وقد جاءت الأخبار بها وصحت الروايات ونطق بها التّنزيل" (46).

وحول إثبات الكرامات على الأولياء يقول القشيري: "القول بجواز ظهورها على الأولياء واجب، وعليه جمهور أهل المعرفة ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علما قويا انتفت عنه الشكوك"⁽⁴⁷⁾.

والدليل على جواز الكرامات على الأولياء، هو صحة الروايات التي وردت حولها وبأسانيد رجال ثقات، كما أن ورودها في التنزيل الحكيم خير دليل على إثباتها وأحقية الاعتقاد بجريانها على عباد الله الصالحين. يقول شمس الدين الرّازي: "وقوع الكرامات جائز عند جمهور أهل العلم والمعرفة، وفائدتها معرفة الولي الصادق، من المدعي الكاذب"⁽⁴⁸⁾، ويذهب أبو يعقوب يوسف بن يحيى التّادلي "أنّ كرامات الأولياء جائزة عقلا ومعلومة قطعاً"⁽⁴⁹⁾.

إنّ مسألة إثبات الكرامات على الأولياء، مسألة لم يخض فيها أهل التصوف فحسب، بل هو مذهب أهل السنة والجماعة، الذي يقرّ بالكرامات، وأحقية وجواز وقوعها على الأولياء والرجال الصّالحاء من أمة محمد عليه السّلام. وبخصوص هذا يقول الإمام النووي في بستان العارفين: "اعلم أنّ مذهب أهل الحقّ إثبات كرامات الأولياء، وأنّها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار"⁽⁵⁰⁾، وعن جواز وقوعها يقول: "ويدلّ عليه دلائل العقول وصرائح النقول، أما دلائل العقل فهي أمر يمكن حدوثه ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدّين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقدورا كان جائز الوقوع أما النقول فأيات في القرآن العظيم وأحاديث مستفيضة"⁽⁵¹⁾.

وعن صحة جوازها عقلا ووقوعها نقلا، قال الشيخ الماجري الينصاري: "لو امتنع الجواز لما وقع، وقد وقع فلا يمتنع، بيان الملازمة أنّ خوارق العادات كلّها مقدورة لله تعالى ابتداء، والقدرة لا تختصّ ببعض الممكنات دون بعض"⁽⁵²⁾، أي إن ما جاز وقوعه معجزة للأنبياء عليهم السّلام، جاز وقوعها كرامة للأولياء، فلا مانع عقلي لحدوثها بمشيئة الله عز وجلّ. ويقول النّباني: "لو امتنع ظهور الكرامة لكان ذلك إما لأجل أن الله ليس أهلا لأن يفعل مثل هذا الفعل، أو لأجل أنّ المؤمن ليس أهلا لأن يعطيه الله هذه العطية، والأول قدح في قدرة الله وهو كفر، والثاني باطل"⁽⁵³⁾.

ومما سبق، يمكن التأكيد على أنّ موقف المقرّين بجواز وقوع الكرامات على أيدي الأولياء، يستند ويستشهد بالدلائل الواردة في الكتاب والسنة. وما تؤكده الوقائع والحوادث التي تناقلها الثقات من الرجال حول صحة الكرامات وثبوت وقوعها على أيدي الأولياء. والشرع كما العقل يبيحان وقوعها على الولي، ولا مستحيل في قدرته تعالى. فالكرامة كالمعجزة، من قبيل الممكنات، وكل ما هو ممكن جاز وقوعه.

ب - مُحجج نفي جريان الكرامات على أولياء الله

مسألة إنكار الكرامات ليست بالقضية الجديدة. فقد ناقشها القدامى باستفاضة كالفلاسفة المسلمين وبعض الفقهاء. وكانت مادة دسمة للفرق الإسلامية. وعلى أي حال، مسألة إنكار الكرامات تتأرجح بين موقفين اثنين: موقف المنكرين المضطربين، يقبلون شيئاً من الكرامات وينفون أشياء أخرى، وموقف الإنكار والرفض الصريح لجريان الكرامات على الأولياء والصالحين.

إن أصحاب الموقف المضطرب لم يكونوا صريحين في إنكارهم للكرامات ولكنهم سعوا إلى التهوين من أمر الكرامة، "وحصروها في مجرد الإمكان العقلي، لا الوقوع الفعلي، وربما قبلوا أنواعاً من الكرامة، لكنها ترجع في الغالب إلى ما يعرف بالكرامة المعنوية"⁽⁵⁴⁾.

وأصحاب هذا الرأي يُقرّون أن الإيمان بالكرامة من عدمه لا يفيد في شيء، فهي حسبهم قضية جزئية، كما أن غياب نص شرعي قاطع الدلالة يوجب الإيمان بها، دليل صريح على هامشية القضية التي لا تفيد ولا تمس عقيدة المؤمن في شيء. وحول هذا يقول الإمام محمد عبدو: "صدور خارق للعادة على يد غير نبي مما تناوله القدرة الإلهية، فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء، وإنما الذي يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم في اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم، بإجماع الأمة، أن ينكر صدور أي كرامة كانت من أي ولي كان، ولا يكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين، ولا مائلاً عن سنة صحيحة، ولا منحرفاً عن الصراط المستقيم"⁽⁵⁵⁾. يهون هذا الرأي من أمر الكرامة ولا يعدّها من الأمور العقديّة المهمّة وعليه جاءت آراؤهم بخصوصها رافضة، لكن باستحياء شديد. على عكس الفكر الاعتزالي الذي أثبت بعض النقول عنهم إنكارهم وقوع الكرامات لأولياء الله. إذ يرفضون جملة وتفصيلاً ظهور الخوارق على غير الأنبياء والرسل. لأنّ مسألة خرق الكرامة للسُّنن الكونية والنواميس الطبيعية أمر بعيد عن دائرة الجواز العقلي.

ومن نقل مُحججهم، الإمام الصّاوي: "قالوا لو وجدت الكرامات لالتبست بمعجزات الأنبياء، فيلتبس النبيّ بغيره، ولو وجدت واستمرت لكثرت وخرجت عن كونها خارقة للعادة"⁽⁵⁶⁾. لأنّ جواز الكرامة على البشر العاديين، يؤدي لالتباسها بالمعجزة، لأنّ الإتيان بالخارق للعادة من اختصاص الأنبياء، والذي هو تأييد ربّاني لدعواهم، والإقرار بأحقية جريانها على الأولياء يجعل التمييز بينهم وبين الأنبياء أمراً مشيراً للشبهة، وهذا لا يجوز.

ومن ساق حجج المنكرين للكرامات، النبّهاني في جامع الكرامات، يورد حجّتهم التي تقول: "أنّ ظهور الخارق للعادة جعله الله دليلاً على النبوة، فلو حصل لغير نبي لبطلت هذه الدلالة، لأنّ حصول الدليل مع عدم المدلول يقدح في كونه دليلاً"⁽⁵⁷⁾.

إنّ خرق العادة محصور في إطار النبوة، إذ "لا يجوز أن يأتي بها أحد غيرهم لا من المخالفين ولا من الموافقين. لأنّ المعنى في إعجازها أنّها لا تتكرر لغيره ممن ليس في منزلته. لأنّها إذا أتت على يد غيره لا تصلح أن تكون شاهداً على صدقه هو فقط لأنّ أساس هذه الشهادة هو عجز غيره عن الإتيان بمثل ما أتى به حتى تبقى معجزته حاملة أسرار الإعجاز دائماً"⁽⁵⁸⁾.

من المنكرين القدامى من المعتزلة، القاضي عبد الجبار، الذي أخذ موقفاً صريحاً من وقوع الخوارق على غير الأنبياء يقول: "لو كانت تظهر على الصّالحين، لكانت بأن تظهر على السلف الصّالح من كبار الصّحابة أولى بأن تظهر على غيرهم ممن يشكّ في حالهم. وقد صحّ، وثبت بتواتر الأخبار أنّها لم تظهر عليهم، لأنّ القوم لم يدعوا ذلك فيهم"⁽⁵⁹⁾.

تمثّل هذه النقول مجموعة من الآراء المتفقة حول إنكار وقوع الكرامات وما يرافقها من خوارق العادات على غير الأنبياء والرسل، مستدلين في ذلك بأدلة من الشرع والعقل، ساقها المنكرون لجريان خوارق العادات على البشر العاديين، حتى لو كانوا من أهل الصّلاح والتّقوى، استناداً إلى أنّ الخارق تأييد ربّاني فضله على رسله وأنبيائه لاقتترانه بالدعوة والدلالة على صدقها وصحتها.

خاتمة

تُجسد الكرامة الصّوفية رؤية معيّنة للعالم، ومظهرها من مظاهر المتخيّل الصّوفي الذي يروي تفاصيل مغامرات الصّوفية ومعارج الارتقاء الروحي من النقص إلى الكمال. ومن الدنيوي نحو القدسي، من الفاني إلى الأبدي. الكرامة ظاهرة منفتحة على عوالم العجيب والغريب، الممكن واللاممكن، المنطقي واللامنطقي. تتغذى من الخيال الخلاق للصّوفي ومن أحلامه المرجوة التي لم تتحقق. "ولعلّ الكرامة تشيع لذّة عند الصّوفي الذي يعيش عادة بلا لذائذ، وتعوض نقصاً في الحب والنشاط والحركة"⁽⁶⁰⁾. ومسألة الإيمان بكرامات الأولياء وما يصاحبها من خوارق، لا يخضع للتجريب المفضي للإيمان بها والتّسليم بأحقيتها. وهذا يعني "أنّ ركنيتها الأولى والوحيدة هي الخبر الذي يضغظ لتصديقه كما هو، أو هي الرواية التي صحت فعلينا قبولها دون تحييص"⁽⁶¹⁾. لأنّ الباحث في مضامين الكرامات الصّوفية، يجدها مرتبطة بأنماط ثقافية أخرى كالأسطورة والأدب الشعبي الخرافي. وهذا ما يبعدها عن المنطق والحقيقة، لأنّها، "في الجانب الأكبر منها، نتاج لا واع، وهي هنا لا تخضع تماماً

لمقولات المنطق، كقولتي المكان والزمان مثلاً، ولا تظهر كحقيقة صاغتها التجربة ويحكم فيها العقل وقادها الفكر الواضح والمعالجة الواقعية والموضوعية⁽⁶²⁾. وحسب الدكتور علي زيغور، فإن الكرامة كذبة على الذات والغير⁽⁶³⁾، حتى أنها أصبحت مخيفة في مجتمعاتنا كونها تحظى بالقبول حتى عند الطبقة المثقفة.

وبعيداً عن مسألة التصديق بها من عدمه، تبقى الكرامة نصاً أدبياً يُجسد نظرة معينة للكون والوجود ويُجسد أزمة القهر الاجتماعي والاضطهاد الديني الممارس على أهل الطائفة. وهذا ما بلورته الجماعة وعبرت عنه بخيال خلاق أنتج أدبا جديرا بالدراسة والاهتمام.

الهوامش

- 1 - صيام شحاتة: الطهر والكرامات: قداسة الأولياء، روافد للنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة، 2011، ص: 69
- 2 - القشيري، أبو القاسم: الرسالة، حواشي، خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ص: 95
- 3 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 4 - نفسه، الصفحة نفسها.
- 5 - نفسه، ص: 380.
- 6 - نفسه، ص: 385.
- 7 - زيغور، علي: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت، لبنان 1977، ط 2، 1984، ص: 8-9.
- 8 - الطوسي، السراج: اللمع، ضبط وتص، كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 2001، ص: 275.
- 9 - المصدر نفسه، ص: 273.
- 10 - الرازي، شمس الدين: حقائق الحقائق، تح وتو، سعيد عبد الفتاح، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، القاهرة، 2002، ص: 256.
- 11 - الطوسي: اللمع، ص: 275.
- 12 - مفتاح، محمد: دينامية النص، المركز الثقافي العربي، ط 2، 1990، ص: 136.
- 13 - شغوم، الميلودي: المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية والبركة، مطبعة فضالة، ط 1، المحمدية، المغرب، 1991، ص: 51.
- 14 - المرجع نفسه، ص: 51-52.
- 15 - مرسيا، إيلاد: مظاهر الأسطورة، تر، نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، ط 1، دمشق، 1999، ص: 10.
- 16 - شغوم، الميلودي: المتخيل والقدسي في التصوف الإسلامي، الحكاية والبركة، ص: 55.
- 17 - نفسه، ص: 57.

- 18 - نفسه، ص: 58.
- 19 - ينظر: علي زيغور: الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم، ص: 27.
- 20 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 21 - خالد التوزاني: الرحلة وفتنة العجيب بين الكلبة والتلقي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط 1، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2017، ص: 39.
- 22 - ينظر: تودوروف، تزفتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، تر، الصديق بوعلام، دار الكلام، ط 1، الرباط، 1993، ص: 50.
- 23 - المرجع نفسه، ص: 55.
- 24 - خليل، لؤي علي: عجائبية النثر الحكائي، أدب المعراج والمناقب، التلويح للتأليف والترجمة والنشر، د ط، دمشق، 2007، ص: 31.
- 25 - زيغور، علي: الكرامة الصوفية والأسطورة و الحلم، ص: 26.
- 26 - نفسه، الصفحة نفسها.
- 27 - الكلاباذي، أبو بكر محمد: التعرف لمذهب أهل التصوف، تص، آرثر جون أري، مكتبة الخانجي، ط 1، القاهرة، 1933، ط 2، 1994، ص: 46.
- 28 - القشيري: الرسالة، ص: 381.
- 29 - السكندري، ابن عطاء الله: لطائف المتن، تح، عبد الحليم محمود، دار المعارف، ط 3، القاهرة، 2006، ص: 66.
- 30 - تاج الدين، السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، تح، عبد الفتاح الحلو ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، د ط، ج 2، ص: 315.
- 31 - الطوسي: اللمع، ص: 273.
- 32 - القشيري: الرسالة، ص: 378.
- 33 - خوالدية، أسماء: الفكة في قصص كرامات الصوفية، دار الإيمان، ط 1، الرباط، 2015، ص: 50.
- 34 - النبهاني، يوسف: جامع كرامات الأولياء، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2005، ج 1، ص: 350.
- 35 - بدران، محمد أبو الفضل: أدبيات الكرامة الصوفية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط 1، القاهرة، 2013، ص: 137.
- 36 - الراوي، عبد الستار: التصوف والباراسايكولوجي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1994، ص: 77.
- 37 - النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج 2، ص: 233.
- 38 - نفسه، ص: 234.
- 39 - النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج 1، ص: 270.
- 40 - بدران، محمد أبو الفضل: أدبيات الكرامة الصوفية، ص: 139.
- 41 - النبهاني: جامع كرامات الأولياء، ج 1، ص: 416.

- 42 - الراوي، عبد الستار: التصوف والباراسايكولوجي، ص: 89.
- 43 - النّباني: جامع كرامات الأولياء، ج 1، ص: 507.
- 44 - الراوي، عبد الستار: التصوف والباراسايكولوجي، ص: 107.
- 45 - ينظر: علي زيغور: الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص: 35.
- 46 - الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص: 44.
- 47 - القشيري: الرسالة، ص: 380.
- 48 - الرازي: حقائق الحقائق، ص: 285.
- 49 - ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السّبي، تح، أحمد التّوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، ط 2، 1997، ص: 54.
- 50 - التّوي، يحيى بن شرف الدّين: بستان العارفين، د ط، د ت، القاهرة، ص: 108.
- 51 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 52 - المزيدي، أحمد فريد: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال، دار الآثار الإسلامية، ط 1، بريلي، سريلانكا، 2006، ص: 31.
- 53 - النّباني: جامع كرامات الأولياء، ج 1، ص: 19-20.
- 54 - ينظر: العنقري، عبد العزيز: كرامات الأولياء، دراسة عقديّة مقارنة في ضوء عقيدة أهل السّنة، دار التّوحيد للنشر والتّوزيع، ط 1، الرياض، المملكة العربية السّعودية، 2012، ص: 309.
- 55 - عبدو، محمد: الأعمال الكاملة، تح، محمد عمارة، دار الشّروق، ط 1، بيروت، القاهرة، 1993، ج 3، ص: 486.
- 56 - الصّاوي: شرح الصّاوي على جوهرة التّوحيد، تح، عبد الفتّاح البزم، دار ابن كثير، د ط، دمشق، بيروت، ص: 346.
- 57 - النّباني: جامع كرامات الأولياء، ج 1، ص: 22.
- 58 - البّاني، أحمد: موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصّوفية، دار العلم للطباعة والنّشر، ط 1، المملكة العربية السّعودية، 1986، ص: 230.
- 59 - القاضي، عبد الجبار: المغني في أبواب التّوحيد والعدل، التنبؤات والمعجزات، تح، محمود محمد قاسم، ص: 241.
- 60 - زيغور، علي: الكرامة الصّوفية والأسطورة والحلم، ص: 31.
- 61 - نفسه، ص: 97.
- 62 - نفسه، ص: 30.
- 63 - ينظر: علي زيغور: الكرامة الصّوفية والأسطورة والحلم، ص: 21.

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر

- 1 - الدّمشقي، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطّحاوية، تح و شر، عبد الله بن المحسن التّركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، ج 1.



- 2 - الرّازي، شمس الدّين: حدائق الحقائق، تح وتقر، سعيد عبد الفتّاح، مكتبة الثقافة الدّينية، ط 1، القاهرة، 2002.
 - 3 - ابن الزّيّات: التّشوف إلى رجال التّصوف، تح، أحمد التّوفيق، منشورات كليّة الآداب بالربّاط، ط 2، 1997.
 - 4 - السّبكي، تاج الدّين: طبقات الشّافعية الكبرى، تح، عبد الفتّاح الحلو ومحمود محمد الطّناحي، دار إحياء الكتب العربيّة، ط 2، ج 2.
 - 5 - السكندري، ابن عطاء الله: لطائف المنن، تح، عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة، 2006.
 - 6 - الصّاوي، أحمد: شرح الصّاوي على جوهرة التّوحيد، تح، عبد الفتّاح البزم، دار ابن كثير، د ط، دمشق، بيروت.
 - 7 - الطّوسي، السّراج: اللّمع، ضبط وتص، كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت، لبنان، 2001.
 - 8 - القاضي، عبد الجبار: المغني في أبواب التّوحيد والعدل، التّنبؤات والمعجزات، تح، محمود محمد قاسم.
 - 9 - القشيري، أبو القاسم: الرّسالة، حواشي، خليل المنصور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 2001.
 - 10 - الكلاباذي، أبو بكر: التّعريف لمذهب أهل التّصوف، تص، آرثر جون أربري، مكتبة الخانجي، ط 1، 1933، ط 2، 1994.
 - 11 - النّبّهاني، يوسف: جامع كرامات الأولياء، ج 1، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، 2005.
 - 12 - النّبّهاني، يوسف: جامع كرامات الأولياء، ج 2، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان.
 - 13 - النّوي، يحيى بن شرف الدّين: بستان العارفين، د ط، د ت، القاهرة.
- المراجع**
- 1 - بدران، محمد أبو الفضل: أدبيات الكرامة الصّوفية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط 1، القاهرة، 2013.
 - 2 - بناني، أحمد: موقف الإمام ابن تيمية من التّصوف والصّوفية، دار العلم للطباعة والنّشر، ط 1، المملكة العربيّة السّعودية، 1986.
 - 3 - تودوروف، تزفتان: مدخل إلى الأدب العجائبي، تر، الصّديق بوعلام، دار الكلام، ط 1، الربّاط، 1993.
 - 4- التّوزاني، خالد: الرّحلة وفتنة العجيب، دار السّويدي للنّشر والتّوزيع، ط 1، أبو ظبي، الإمارات العربيّة المتّحدة، 2017.
 - 6 - خوالدية، أسماء: الفكّة في قصص كرامات الصّوفية، دار الإيمان، ط 1، الربّاط، 2015.
 - 7 - خليل، لؤي علي: عجائب النّثر الحكائي، أدب المعراج والمناقب، التّلوين للتّأليف والتّرجمة والنّشر، د ط، دمشق، 2007.
 - 8 - الرّاوي، عبد السّتار: التّصوف والباراسايكولوجي، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنّشر، ط 1، بيروت، 1994.
 - 9 - زيغور، علي: الكرامة الصّوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس للطباعة والنّشر، ط 1، 1977، ط 2، 1984، بيروت، لبنان.
 - 10 - شغوم، الميلودي: المتخيّل والقدسي في التّصوف الإسلامي، الحكاية والبركة، مطبعة فضالة، ط 1، المحمديّة، المغرب، 1991.
 - 11 - صيام، شحاتة: الطّهر والكرامات، قداسة الأولياء، روافد للنّشر والتّوزيع، ط 1، القاهرة، 2011.
 - 12 - عبدو، محمد: الأعمال الكاملة، تح، محمد عمارة، دار الشّروق، ط 1، بيروت، القاهرة، ج 3، 1993.

- 13 - العنقري، عبد العزيز: كرامات الأولياء، دراسة عقديّة مقارنة في ضوء عقيدة أهل السنة، دار التوحيد للنشر والتوزيع، ط 1، الرياض، المملكة العربية السعودية، 2012.
- 14 - المزدي، أحمد فريد: جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال، دار الآثار الإسلامية، ط 1، بريلي، سريلانكا، 2006.
- 15 - مرسيا، إلباد: مظاهر الأسطورة، تر: نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، ط 1، دمشق، 1999.
- 16 - مفتاح، محمد: ديناميّة النص، المركز الثقافي العربي، ط 2، 1990.